

الميثاق الأول بين الله والإنسان:

قراءة قرآنية في الآيتين (172-173) من سورة الأعراف

The First Covenant Between God and Man:

A Qur'anic Reading of Verses (172–173) of Surah al-A'rāf

لمين محمد محمود | جامعة الزيتونة، بتونس

leminebaba7@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/08/23 تاريخ القبول: 2025/11/08 تاريخ النشر: 2025/12/06

الملخص:

يتناول هذا البحث تفسير قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۖ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 172–173]، من خلال منهج تفسير القرآن بالقرآن، متتبعا أبعاد الميثاق الإلهي، والفطرة، ومسؤولية الإنسان، في ضوء النصوص المحكمة والمعاني القرآنية الكلية.

ينقسم البحث إلى محورين رئيسيين:

المحور الأول: يعالج مسألة الميثاق الإلهي من خلال بيان معنى «الأخذ من الظهور»، وهل هو واقع في عالم الأرواح، أو تعبير عن فطرة مغروسة، ثم يتناول مفهوم الإشهاد على النفس، وعلاقته بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، قبل أن يبين كيف تُسقط الآية حجة الغفلة، وتقطع المعذرة بادعاء عدم التذكر أو الجهل الأصلي.

المحور الثاني: يعالج البعد الاجتماعي والتربوي للآية، من خلال الردّ على حجة التقليد، وبيان أنّ الوراثة العقدية لا تعفي الإنسان من مسؤوليته الفردية، وأنّ عدالة الله تقتضي ألا يؤخذ أحداً بجريرة غيره، مختتماً ببيان تكامل الحجة بين الفطرة، والرّسل، والجزاء، وأنّه لا مجال للاعتذار يوم القيامة لمن ترك البحث عن الحقّ اتّباعاً للمبطلين.

ومن نتائج البحث: أنّ الآية تؤسّس لرؤية قرآنية متماسكة في الحرية العقدية، والمحاسبة العادلة، والوعي الفطري بالربوبية، وتكشف زيف الاتكاء على التقليد، أو البيئة، لتبرير الانحراف، كما تؤكد شمول الحجة الربانية لجميع الناس.

الكلمات المفتاحية: العهد الإلهي؛ الفطرة؛ المسؤولية الفردية؛ الحرية العقدية؛ العدالة المنصفة.

Abstract:

This study explores the interpretation of Allah's saying in **Surat al-A'rāf (7:172–173)**:

"And [mention] when your Lord took from the children of Adam—from their loins—their descendants and made them testify of themselves, [saying to them], 'Am I not your Lord?' They said, 'Yes, we have testified,' lest you should say on the Day of Resurrection, 'Indeed, we were unaware of this,' or lest you should say, 'It was only that our forefathers associated [others with Allah] before, and we were but descendants after them. Will You then destroy us for what the falsifiers have done?'"

The research employs the **method of interpreting the Qur'an by the Qur'an**, tracing the dimensions of the **Divine Covenant**, **innate disposition (fiṭrah)**, and **human responsibility** in light of the definitive Qur'anic texts and overarching meanings.

The study is divided into two main sections:

The first section addresses the concept of the **Divine Covenant**, explaining the meaning of "taking from their loins"—whether it refers to an event that occurred in the world of spirits or symbolizes an inborn disposition. It further examines the notion of **bearing witness against oneself** and its relation to the fiṭrah upon which Allah created humankind, showing how the verse nullifies the excuse of heedlessness and removes any claim of forgetfulness or primordial ignorance.

The second section explores the **social and educational dimensions** of the verse by refuting the **argument of blind imitation**, demonstrating that **doctrinal inheritance** does not absolve the individual from personal responsibility. It affirms that **Divine justice** precludes punishing anyone for another's wrongdoing and concludes by showing the harmony between **fiṭrah, the messengers, and divine recompense**, emphasizing that no excuse will be accepted on the Day of Resurrection from those who neglected to seek the truth, following instead the ways of the misguided.

The findings of the study indicate that the verse lays the foundation for a coherent Qur'anic vision of **religious freedom**, **just accountability**, and **innate awareness of divine lordship**. It exposes the false reliance on **tradition or environment** as a justification for deviation and confirms the **universality of the divine proof** for all humankind.

Keywords: Divine Covenant; Fiṭrah (Innate Disposition); Individual Responsibility; Religious Freedom; Just Justice.

1. مقدمة:

الحمد لله الذي فطر الخلق على معرفته، وغرس فيهم الإيمان به، وأقام عليهم حججه في الأنفس والآفاق، وأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعدهم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فمن أعظم ما ورد في القرآن الكريم من إشارات إلى أصل الفطرة، ومسؤولية الإنسان عن إيمانه وتوحيده، ما جاء في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۖ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْتَ مُبْطِلُونَ ۖ﴾ [الأعراف: 172-173].

هاتان الآيتان الكريمتان هما من الآيات التي اجتمع فيها عمق المعنى، واتساع الدلالة، وثراء التأويل، فقد تناولها المفسرون منذ القرون الأولى، وأثاروا حولها أسئلةً عقديّةً وفطريةً كبيرة، تتصل بمسؤولية الإنسان، ومصدر معرفته بالله، وحدود الاحتجاج بالبيئة والتقليد.

إننا بإزاء نصّ قرآنيّ يؤسّس لما يُسمّى في الفكر العقدي بـ«الميثاق الفطري»، ويُسقط حجج الغفلة والتقليد، ويبيّن عدل الله في مؤاخذه الإنسان بما يصدر عنه من انحراف أو كفر، رغم اختلاف البيئات والأنساب والمجتمعات، وإنّما جاء هذا البحث إسهامًا في إعادة قراءة هذه الآيات في ضوء تفسير القرآن بالقرآن، معتمدين المنهج الموضوعي الذي يستجمع النظائر القرآنية المتعلّقة بالفطرة، والمسؤولية، والتكليف، والعقوبة، ليقدم للقارئ تصوّرًا قرآنيًا متكاملًا عن هذا الميثاق العجيب، الذي يُعدّ حجر الأساس في بناء علاقة العبد برّبّه.

1.1. أهمية الموضوع:

تكمن أهمية دراسة هذه الآيات؛ في أنّها تُقدّم رؤية قرآنية متكاملة تجمع بين معرفة الإنسان بالله، وحرية الإرادة، والمسؤولية الفردية، والعدالة الإلهية، وهو ما يجعلها موضوعًا محوريًا لفهم أسس العقيدة الإسلامية وتكاملها مع الفطرة الإنسانية.

2.1. أسباب اختيار الموضوع:

اختيار هذا الموضوع جاء لدوافع علمية وفكرية متعدّدة، نذكر منها:

- أ. عمق النص القرآني وغناه الدلالي، ممّا يتيح دراسةً مركّبةً تجمع بين الفقه، والعقيدة، والتربية.
- ب. أهمية الفطرة والميثاق في بناء الوعي الفردي والمجتمعي، خاصّة في مواجهة حجج التقليد، والوراثة العقديّة.
- ج. ندرة الدراسات المتكاملة، التي تربط بين قراءة القرآن بالقرآن، والتحليل العقدي، والبعد التربوي، والاجتماعي.

3.1. إشكالية البحث:

تنشأ إشكالية البحث من التساؤلات العقديّة والفطرية التي أثارها هذه الآيات، وهي:

كيف يؤسّس القرآن الكريم للميثاق الفطري، وما علاقته بمسؤولية الإنسان الفردية، وما هي حدود حجج الغفلة أو التقليد في مساءلة الفرد أمام الله تعالى؟

تتعلّق هذه الإشكالية بوضوح العلاقة بين الفطرة، والمعرفة الإلهية، والحرية العقدية، وعدالة الله، مع معالجة السؤال: هل يمكن للإنسان أن يتحقّق بأصله، أو بيئته، أو تقليده، لتجنّب المسؤولية الفردية؟

4.1. أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف العلمية، وهي:

أ. تأصيل مفهوم الميثاق الفطري: دراسة معنى «الأخذ من الظهور» في سياق القرآن الكريم، وتحليل دلالاته على الفطرة الإنسانية.

ب. توضيح مسؤولية الإنسان الفردية: من خلال إبراز كيف تُسقط الآيات حجج الغفلة والتقليد، وتبيّن عدالة الله في مساءلة الإنسان.

ج. تسليط الضوء على البعد الاجتماعي والتربوي: ببيان أنّ الوراثة العقدية والاتباع الأبائي لا يعفي الإنسان من البحث عن الحقّ.

د. تقديم قراءة متكاملة بالاعتماد على منهج تفسير القرآن بالقرآن: من خلال ربط الآيتين بنصوص أخرى، لتعميق الفهم القرآني للفطرة، والميثاق والمسؤولية.

5.1. المنهجية المعتمدة:

يعتمد البحث على المنهج الموضوعي في تفسير القرآن بالقرآن، مع مزج بين:

أ. التحليل اللغوي والاصطلاحي: لمعاني المفردات الأساسية مثل: «الأخذ من الظهور»، و«الإشهاد على النفس».

ب. المقارنة بين النصوص القرآنية: ذات الصلة بالميثاق والفطرة والرّسالة والتكليف، لتبيان وحدة المعنى، واتّساع الدلالة.

ج. الاستنتاج العقدي والتربوي: الذي يربط بين الفطرة، والحرية الفردية، والمسؤولية، والجزاء العادل.

6.1. الدراسات السابقة:

لقد تناول العديد من المفسّرين والباحثين موضوع الميثاق الأول والفطرة الإنسانية، من خلال تفاسيرهم للآيات (172-173) من سورة الأعراف، ومن أبرز هذه الدراسات:

أ. تفاسير المتقدمين: مثل تفسير الطبري، وتفسير القرطبي، وتفسير الرازي، الذين عالجوا مسألة «الأخذ من الظهور»، وربطوه بعالم الأرواح، والفطرة المغروسة في النفس الإنسانية، وأبرزوا دور هذه الآيات في إثبات مسؤولية الإنسان الفردية أمام الله.

ب. الدراسات العقدية والفكرية الحديثة: مثل أعمال محمد الغزالي، سيد سابق، عبد الله دراز، التي ركزت على البعد الفلسفي والعقدي للميثاق، وعلاقة الفطرة بالإرادة والاختيار، مع توضيح حجة الغفلة والاتباع التقليدي.

ج. الدراسات المعاصرة في التربية الإسلامية وعلم النفس الديني: التي بحثت أثر مفهوم الفطرة على الوعي الأخلاقي والالتزام الديني، مثل دراسات محمد حسين فضل الله، وغيرها من الدراسات التي تناولت أثر النصوص القرآنية في بناء وعي الفرد، وتحمله مسؤوليته.

ومع ذلك، يلاحظ أنّ معظم هذه الدراسات تناولت الجانب العقدي أو الفقهي أو التربوي منفردًا، دون تقديم قراءة شاملة متكاملة، تربط بين النص القرآني، والفطرة، والمسؤولية الفردية، والبعد الاجتماعي، والتربوي. وهذا ما يسعى إليه هذا البحث من خلال تفسير القرآن بالقرآن، وتحليل الآيتين ضمن منهجية علمية شاملة.

7.1. خطة البحث:

جاءت خطة البحث في مطلبين رئيسيين:

المطلب الأول: يتناول بيان الميثاق ومسؤولية الإنسان من خلال سياق الآية الأولى.

المطلب الثاني: يناقش الحجة الثانية التي أسقطتها الآية التالية، وهي حجة الاتباع الأبائي، في ضوء عدالة الله وشمولية التكليف.

2. المطلب الأول: الميثاق الإلهي ومسؤولية الإنسان

1.2. معنى الأخذ من الظهور، والذرية، في ضوء القرآن:

تبدأ آية الميثاق بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: 172]. وهو تركيب لغوي معقد، استوقف المفسرين والمتكلمين.

قال ابن عاشور: (و«إِذْ» اسمٌ للزمن الماضي، وهو هنا مجرد عن الظرفية، فهو مفعولٌ به لفعل «أذْكَر» محذوف. وفعل «أخذ» يتعلّق به «مِنْ بَنِي آدَمَ»، وهو مُعدّي إلى ذريّاتهم، فتعيّن أن يكون المعنى: أخذ ربك كلّ فرد من أفراد الذرية، من كلّ فرد من أفراد بني آدم، فيحصل من ذلك أنّ كلّ فرد من أفراد بني آدم أقرّ على نفسه بالمربوبية لله تعالى⁽¹⁾).

وقد أثار موضوع «الأخذ» نقاشاً حول طبيعته، وزمانه، ومكانه، وحقيقته: أهو أخذٌ حقيقيٌ حسيٌّ، وقع في عالم الأرواح، أو في صلب آدم؟ أم هو أخذٌ معنويٌّ يعبر عن فطرة الإيمان المغروسة في النفس الإنسانية؟ ولفهم هذا التعبير القرآني، لا بدّ من تفكيكه وتأمله في ضوء آيات الخلق والنشأة، وفي سياق مقاصد القرآن الكلية.

1.1.2. المسألة الأولى: في معنى ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾:

اللفظ يحمل صورةً تشريحيّةً، وتشبيهاً خلقياً متكرراً في القرآن، ف«الظهور» جمع ظهر، وهو ما يستبطن معنى التوالد والتسلسل النسبي، ويكون المعنى: (أي: واذكر إذ أخذ من «ظُهُورِهِمْ»، بدلًا من «بَنِي آدَمَ»، والتفسير: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم «ذُرِّيَّتَهُمْ». ومعنى أخذ ذريّاتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلاب آبائهم. (وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بلى شهدنا)، هذا من باب التمثيل، ومعنى ذلك: أنّه نصب لهم الأدلة على ربوبيّته، ووحدانيّته، وشهدت بها عقولهم⁽²⁾).

وقد بيّن القرآن أنّ الإنسان يُخلق من نطفة، وأنّ هذه النطفة تخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۗ﴾ [الطارق: 5-7].

ويُفهم من هذا أنّ معنى «أَخَذَ مِنْ ظُهُورِهِمْ» يحتمل أحد أمرين:

أ. أخذٌ حقيقيٌّ في عالم الحسّ:

أي: أنّ الله سبحانه استخرج من صلب آدم ذريّته جميعاً، على نحو ما ورد في الحديث المشهور: (إنّ الله - تبارك وتعالى - خلق آدم، ثمّ مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريّة، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثمّ مسح ظهره، فاستخرج منه ذريّة، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون) [مالك، الموطأ، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، حديث رقم: 2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 166/9.

(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي): 616-617/1.

وهذا هو رأي جمهور المفسرين من السلف، كالطبري⁽¹⁾، والقرطبي⁽²⁾، وابن كثير⁽³⁾، والبيهقي⁽⁴⁾، وغيرهم. وهو تفسير يقتضي أن الآية تتحدث عن واقعة غيبية حقيقية، وقعت في بداية الخلق.

ب. أخذ مجازي بمعنى الخلق المتكرر، والنشوء المتتابعي:

ويدل عليه السياق التكويني الذي يتكرر في القرآن، من مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

مما يشير إلى أن الذرية تؤخذ جيلاً بعد جيل من ظهور الآباء، وكل نفس تُخلق مزودةً بفطرة داخلية تقتضي معرفة ربها، وهو ما يُسمى بـ «الميثاق الفطري».

2.1.2 المسألة الثانية: هل وقع الميثاق في عالم الأرواح، أم هو تعبير عن الفطرة؟

انقسم العلماء في تفسير هذا الميثاق إلى اتجاهين رئيسيين:

أ. الاتجاه الأول: القول بوقوع الميثاق حقيقةً في عالم الأرواح:

وهو رأي جمهور السلف⁽⁵⁾، استناداً إلى ظاهر الآية والحديث، فجمهور أهل العلم يقولون: إن الآية هي نفسها المرادة في الأحاديث، ولهذا جاء نصّها في حديث ابن عباس -رضي الله عنه- كما سبق.

ويفيد أن الله استخرج ذرية آدم، وأشعرهم بربوبيّته، وألزمهم بالإقرار بها، فشهدوا بذلك⁽⁶⁾.

وهذا الإشهاد هو الحجّة التي ستُقام عليهم يوم القيامة. وقد جاء النص على ذلك في قول ابن عباس: (خلق الله آدم، فأخذ ميثاقه أنه ربه، وكتب أجله، ورزقه، ومصائبه، ثم أخرج من ظهره كالذرّ، فأخذ ميثاقهم أنه ربه، وكتب آجالهم، وأرزاقهم، ومصائبهم) [البيهقي، القضاء والقدر، باب ذكر البيان أن الله تعالى حيث أخذ الميثاق من بني آدم ... حديث رقم: 67]. وعلى هذا أيضاً سعيد بن جبّير، ومجاهد وغيرهم⁽⁷⁾.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص -من طريق موله أبي فراس- قال: (لما خلق الله آدم، نفّضه نفّضَ المزود⁽⁸⁾، فخرّ منه مثل النّغف⁽⁹⁾، فقبض منه قبضتين، فقال لما في اليمين: في الجنّة، وقال لما في الأخرى: في النّار). [البيهقي، الأسماء والصفات، باب ما ذكر في اليمين والكفّ، حديث رقم: 713].

(1) الطبري، جامع البيان: 222/13.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 319-314/1.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 456-451/3.

(4) البيهقي، القضاء والقدر: ص 140.

(5) انظر: الشنقيطي، العذب الثّمر من مجالس الشنقيطي في التفسير: 310/4.

(6) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1613/5.

(7) انظر: مساعد الطيّار؛ نوح الشهري، موسوعة التفسير المأثور: 480/9.

(8) المزود: وعاء يُجعل فيه الزاد. انظر: ابن منظور، لسان العرب (زود): 198/3.

(9) النّغف: دود يسقط من أنوف الغنم والإبل، انظر: ابن منظور، لسان العرب (نغف): 338/9.

وفي مسند الإمام أحمد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: (أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعني عرفة -، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً، قال: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ» [أحمد، حديث رقم: 2455].

لكن هذا الرأي يصطدم بإشكالات عقلية، من أهمها:

كيف يُحمّل الإنسان مسؤولية ميثاق لا يذكره ولا يتذكره؟

وجواب الجمهور: أن الذكرى ليست شرطاً للحجة، بل إن هذا العهد الغريزي محفوظ في أصل الفطرة، ويقوم عليه ضمير الإنسان.

ب. الاتجاه الثاني: أن الآية تعبير عن الفطرة، لا عن واقعة سابقة:

ويميل إليه عدد من العلماء المتأخرين، ويدعمه قول الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَفُطِرَ اللَّهُ لَيْسَ بِطَرِ النَّاسِ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: 29].

وهو ما ذهب إليه شيخ الإسلام بن تيمية⁽¹⁾، وتلميذه ابن القيم⁽²⁾، واختاره الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، حيث قال: (والإشهاد على الأنفس يُطلق على ما يساوي الإقرار أو الحمل عليه، وهو هنا الحمل على الإقرار، واستعير لحالة مغيبة تتضمن هذا الإقرار، يعلمها الله، لاستقرار معنى هذا الاعتراف في فطرتهم. والضمير في «أَشْهَدَهُمْ» عائذ على الذرية، باعتبار معناه؛ لأنه اسم يدل على جمع. والقول في «قَالُوا بَلَى» مستعار أيضاً، لدلالة حالهم على الاعتراف بالربوبية لله تعالى. وجملة «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» مقول لقول محذوف، هو بيان لجملة «أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»، أي: قرّهم بهذا القول، وهو من أمر التكوين. والمعنى واحد؛ لأنّ الذرية لما أضيف إلى ضمير بني آدم؛ كان على معنى التوزيع)⁽³⁾.

وبهذا يكون معنى الآية: أن الله فطر الناس على معرفته، وغرس فيهم توحيده، فلا حجة لأحد يوم القيامة أن يقول: ما علمت ولا عرفت.

3.1.2 المسألة الثالثة: سياق الآيات يؤيد المعنى الفطري

هاتان الآيتان (172، 173) من سورة الأعراف، تأتيان في سياق الحديث عن الإنذار، والرسالة، والمعدرة، ممّا يرجّح أن المقصود هو بيان أن الإنسان لا يمكنه التذرع بالغفلة، أو بالتقليد، ليتهرب من مسؤولية الإيمان. وجعل هذا الإقرار حجة عليهم، فلا يقولوا يوم القيامة: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أو يقولوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ، أي فاحتجّ عليهم بما أودعه في فطرتهم من التوحيد، وبما أرسل إليهم من الرسل، فالغاية من ذكر

(1) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل: 491/8.

(2) ابن القيم، الروح: ص 165.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 167/9.

الميثاق في هذا الموضع هي إقامة الحجّة على الإنسان، حتى لا يحتجّ بالغفلة أو بالتقليد، وهذا ينسجم تمامًا مع سياق الآيات، الذي يدور حول الإنذار، والرّسالة، والمُعذرة⁽¹⁾.

والقرآن يشير في مواضع متعدّدة إلى أنّ الإنسان مزوّد بما يجعله مدرّكًا لرّبّه، حتّى قبل مجيء الرّسل، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَبِيحًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2]، وفي هذا تأكيد على أنّ الفطرة، والعقل، والحسّ، والكون، كلّها شواهد إلهيّة تمنع التذرّع بالغفلة.

ويتّضح ممّا سبق أنّ عبارة ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ تفيد أخذ النّسل جيلاً بعد جيل، وأنّ «الإشهاد» قد يكون حقيقيّاً في عالم الغيب، كما ذهب السّلف، أو هو تعبيرٌ عن الفطرة كما رجّحه بعض المعاصرين. لكن في الحالتين، فإنّ جوهر الآية قائمٌ على مسؤولية الإنسان عن إيمانه، وعدم صلوحية التذرّع بحجّة الغفلة أو البيّنة، إذ إنّ الميثاق مستقرٌّ في كيانه، مشهود في فطرته، محروس في ضميره، والقرآن إنّما يذكره بذلك، ليقيم عليه الحجّة، ويقطع عنه المعذرة.

2.2. الإشهاد على النفس، ومعنى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

من المحاور العقدية الكبرى في آية الميثاق ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۚ قَالُوا بَلَىٰ ۚ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: 172].

فهنا مشهدٌ من الإشهاد الإلهي، يتجلّى فيه سؤال ربّانيّ لا يُقصد به الاستفهام، بل الإقرار: «ألسنت برّبكم»، وجواب بشري إجماعي صريح: «قالوا بلى»، فكان ذلك شهادةً من الإنسان على نفسه، تقطع عذره، وتؤكد مسؤوليته.

ولكن ما هو «الإشهاد على النّفس»؟ وكيف يُفهم في ضوء القرآن؟ وهل هو إشهادٌ تاريخيٌّ وقع بالفعل، أم إشهادٌ فطريٌّ غُرس في كيان الإنسان؟ وكيف يُربط بين هذه الآية، وما ورد في القرآن عن الفطرة والضمير؟ هذا ما نحاول تفصيله في هذا العنصر.

1.2.2 المسألة الأولى: مفهوم الإشهاد في القرآن الكريم

الإشهاد لغة هو: الإحضار على وجه اليقين والقطع، ومنه الشهادة التي تقال عند القضاء، أو الشهادة على الحقيقة، أو الشهادة على النفس⁽²⁾.

وفي القرآن يتكرّر هذا المفهوم في سياقات متعدّدة، منها:

- الإشهاد القضائي: كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: 281].
- الإشهاد الكوني: كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الإسراء: 96].

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 501/3-507.

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب: 243-239/3.

- الإشهاد النفسي (الذاتي): كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24]، وقوله: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: 14].

أمّا في آية الميثاق، فالإشهاد على النفس له خصوصية بالغة، فهو إعلان داخلي عميق، لا بحضور شهود خارجيين، بل بإقرار الكيان الإنساني كلّ بحقيقة ربوبيّته سبحانه، فإنّ الله أوجد في الإنسان شهادةً فطريّةً ذاتيّةً، فهي شاهدٌ حاضرٌ لا يغيب، شاهدٌ عليه بنفسه.

2.2.2 المسألة الثانية: معنى «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ»، ودلالته العقدية

الخطاب الإلهي بـ «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» لا يُقصد به الاستفهام الحقيقي، بل هو سؤالٌ توكيديٌّ يُراد به الإلزام والإقرار⁽¹⁾، كقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: 139]، وهو أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ لإثبات الأمر في ذهن المخاطب.

وقوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» سؤالٌ عن الربوبية، أي: ألسنت المتكفل بخلقكم، وتديركم، وإيجادكم؟ والربوبية في هذا السياق تتضمن معنى الألوهية، لأنّ من أقرّ بأنّ الله هو الخالق المدبّر، لزمه أن يقرّ له بالعبادة والطاعة.

أمّا جواب الذريّة: «قالوا بلى شهدنا»، يحمل دلالتين:

- الاعتراف القلبي الداخلي: الذي هو أصل الإيمان.

- الالتزام المبدئي بالعبودية: بما يُسقط حجة الجهل أو الغفلة لاحقاً.

وهذا الجواب يمثل إعلاناً فطريّاً داخل كلّ إنسان، يُترجم إلى ضمير، وبصيرة، ونزوع نحو الحقّ. وبالتالي فمن قال بلسانه: بلى، وجدد بقلبه: فقد خالف الفطرة، وكتم الشهادة.

3.2.2 المسألة الثالثة: الفطرة القرآنية وشهادة النفس

قال الله تعالى: ﴿بِأَنفِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيمًا فِطَرَتِ اللَّهِ الَّتِي بَطَرَ النَّاسُ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 29]. وقد فسّر كثيرٌ من العلماء «فطرة الله» هنا؛ بأنّها المعرفة الربّانية المركوزة في كيان الإنسان، والتي تشهد له بأنّ له ربّاً واحداً مستحقّاً للعبادة⁽²⁾.

وهذه الفطرة هي التي تُفسّر معنى الإشهاد في آية الأعراف، فالله لا يطالب الإنسان بالإيمان بناءً على شيء غريب عنه، بل بناءً على شهادة كامنة فيه، تشهد بها فطرته.

وهذه الفطرة تظهر في أحوال كثيرة في:

- الميل الطبيعي إلى التوجّه إلى الله عند الشدّة.

- الشعور الأخلاقي بأنّ الظلم قبيح، والعدل حسن.

- الحنين إلى المعنى، والرغبة في الغاية.

(1) انظر: النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 617/1. وقد ذكرت أقوال المفسّرين سابقاً.

(2) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 24/14.

قال الرازي في تفسيره: (أما على قول من أثبت الميثاق الأول؛ فكل هذه الأشياء محمولة على ظواهرها، وأما على قول من أنكره؛ قال: إنها محمولة على التمثيل، والمعنى: أنه تعالى نصب لهم الأدلة على ربوبيته، وشهدت بها عقولهم، فصار ذلك جاريًا مجرى ما إذا أشهدهم على أنفسهم، وإقرارنا بوحدانيتها)⁽¹⁾.

4.2.2 المسألة الرابعة: الإشهاد حجة على الإنسان لا تغيب⁽²⁾

ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْفَيْمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]، يبين أن الإشهاد هو حجة قائمة على كل إنسان، تُسقط عنه أعذار الجهل أو التقليد، فلا يحق لأحد أن يقول: لم يخبرني أحد، أو وجدت آبائي على ملة أخرى.

وملخص قول القرطبي: أن الإشهاد هنا تنبيه على أن الحجة قائمة على الخلق من جهة فطرتهم، وإن أرسل إليهم رسولاً زادهم بياناً، وإن لم يرسل فالفطرة شاهدة⁽³⁾.

ويتضح مما سبق أن الإشهاد في آية الميثاق؛ هو إشهادٌ باطني عميق، يحمل معاني الفطرة والعقل والبصيرة، ويجعل الإنسان مسؤولاً أمام الله عن إيمانه ومعرفته. فكلية «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» سؤال إقرار وفطرة، وجواب «بلى» هو تعبير عن حقيقة كامنة في الكيان الإنساني، تستوجب الالتزام والتوحيد، لا مجرد الإقرار المجرد، وهكذا فإن الميثاق ليس ذكرى تاريخية، بل شهادة حاضرة، تستمر مع الإنسان ما دام حيًا، وتُبعث معه يوم القيامة، حجة له أو عليه.

3.2 سقوط حجة الغفلة

تمثل خاتمة الآية الكريمة: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْفَيْمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]؛ تقريراً لحكمة الإشهاد ومعناه المقصود، وهو إبطال حجة الغفلة، وكشف زيف الادعاء بعدم العلم أو النسيان أو الجهل بحقيقة الربوبية التي فطر عليها الإنسان.

فالآية تعلن أن هذا الإشهاد الإلهي، سواء فُسِّر بكونه ميثاقاً وقع في عالم الذر، أو فطرة مغروسة في النفس، فهو يجعل الإنسان مسؤولاً ومحجوجاً، لا عذر له، ولا غفلة تُقبل منه يوم القيامة.

1.3.2 المسألة الأولى: التفسير السياقي لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْفَيْمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾

صيغة الآية تفيد التعليل، أي: أن الله أشهدهم على أنفسهم، لئلا يقولوا يوم القيامة: «إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»، أي: عن حقيقة ربوبية الله وتوحيده. والمعنى: أن الإشهاد جاء استباقاً لدفع حجة قد تُدعى لاحقاً، وهي حجة الغفلة الأصلية عن الله، سواء كانت غفلة فطرية، أو تورطاً في التقليد الأعشى.

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: شهدنا عليكم أيها المقرئون بأن الله ربكم، كيلا تقولوا يوم القيامة: «إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»، إِنَّا كُنَّا لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ، وَكُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْهُ، أَوْ تَقُولُوا: «إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): 402/15.

(2) انظر: المراجع السابقة.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 319-314/1.

بَعْدِهِمْ»، اتَّبَعْنَا مِنْهَا جَهَنَّمَ، أَفَتَهْلِكُنَا بِإِشْرَاكَ مَنْ أَشْرَكَ مِنْ آبَائِنَا، وَاتَّبَعْنَا مِنْهَا جَهَنَّمَ عَلَى جَهْلٍ مِّنَّا بِالْحَقِّ؟ وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: «بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ»، بما فعل الذين أبطلوا في دَعَاوِهِمْ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ⁽¹⁾.

وقد عبّر القرآن عن هذا النوع من الحجج في مواضع أخرى، مثل قولهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكَرِهَرَانَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 67]، وقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]. وكلها أعدار لا تُقبل في ميزان المسؤولية الشرعية، لأنها تنطلق من تجاهل الفطرة، وطمس البصيرة، وترك طلب الحق.

2.3.2 المسألة الثانية: حجية الفطرة في إسقاط دعوى الغفلة

بيّنا في المحور السابق أنّ الإِشهاد قد يكون تمثيلاً للفطرة المركوزة في النَّفس، التي جعلها الله حجةً داخليةً على الإنسان، وهذه الفطرة هي التي تمنع صحّة دعوى الغفلة. فالإنسان مهيباً نفسياً وعقلياً وروحياً لمعرفة خالقه، وقد زوّده الله بـ:

- بصيرة داخلية: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: 14].
- سمع وبصرو فؤاد: ﴿وَجَعَلْ لَّكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ فَلَيْلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 8].
- التمييز بين الخير والشر: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10].

وهذه الوسائل الثلاثة تشكّل عناصر محورية في إدراك التوحيد، بحيث لا تكون دعوى الجهل به أصلاً معقولة. ولذلك كان الإِشهاد حجةً لا تُمعى، ولو لم يُرسل النَّبي، فالإنسان يعرف ربّه بعقله وفطرته أولاً، ثم تأتي الرسالة لتقوم الحجة التامة.

3.3.2 المسألة الثالثة: الردّ على الغفلة التربوية والاجتماعية

تُستكمل الآية في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 173].

وهذه الآية تصوّر حجةً ثانية، وهي: الغفلة المكتسبة، أي أنّ النَّاس وُلدوا في بيئة شركية، وتعلّموا على أيدي آبائهم، فهل يُؤاخذون على ما ورثوه دون إرادة منهم؟

والجواب: أنّ الفطرة، والقدرة على التمييز، تظلّان تعملان حتّى في ظلّ بيئة فاسدة. ولذلك نجد أنّ كثيراً من المؤمنين في التاريخ نشأوا في بيئات مشرّكة، كإبراهيم -عليه السلام-، وسلمان الفارسي -رضي الله عنه-، والنجاشي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وغيرهم. وهذا يدلّ على أنّ الإنسان ليس محكوماً مطلقاً ببيئته، بل يمتلك قدرة على الخروج من الجهل، والبحث عن الحقّ، والرجوع إلى ما أودع الله فيه من شهادة داخلية -كما بيّنا سابقاً في تفسير الفطرة والميثاق-.

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 251/13.

4.3.2 المسألة الرابعة: الخطاب يوم القيامة لا يقبل الغفلة

القرآن يُصوّر أحوال الإنسان يوم القيامة حين يُسأل، فلا يُقبل منه أن يقول: «ما علمت»، أو «نسيت»، أو «اتبعت غيري»، لأنّ الإشهاد الإلهي يكون قد سبقه، سواءً عبر الوحي أو الفطرة، أو كليهما، كما ذكرنا سابقاً، فأشهدهم ربهم يوم أخذ الميثاق، وأقام عليهم الحجّة في كلّ طور.

ويؤكّد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَفَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: 31]، فهم يُقرّون بالحقيقة بعد فوات الأوان، ولكن لا يُقبل منهم.

وعليه، فإنّ دعوى الغفلة الأصلية، أو التربوية، تُردّ جميعاً بفعل الإشهاد الإلهي الذي سبق في عالم الفطرة أو الذرّ، وجعل الإنسان مسؤولاً عن توحيد ربّه. فالشهادة على النّفس، والاعتراف بربوبية الله، والفطرة الإيمانية، كلّها تشكّل منظومةً محكمةً تُسقط كلّ حجّة، وتُبقي الإنسان حرّاً، مسؤولاً، مختاراً، مدرّكاً، مطلوباً منه أن يستجيب لنداء الله، ويبحث عن نوره، قبل أن يُقال له يوم القيامة: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بِكَ شَبَهْنَا عَنْكَ غِطَاءً كَبِيرًا﴾ [ق: 22].

3. المطلب الثاني: التقليد والعدالة الأخروية

1.3 التقاطع بين الفطرة والوراثة العقدية

تأتي الآية الكريمة في سياق الحديث عن الإشهاد الإلهي على بني آدم: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ تَبَتَّلْ كُنَّا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 173]، لتفتح نافذة تأملية دقيقة فيما يمكن تسميته: تقاطع الفطرة والتقليد، أو «الصّراع بين ما فطر عليه الإنسان، وما ورثه عن محيطه العقدي والاجتماعي».

1.1.3 المسألة الأولى: معنى ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ في ضوء السياق

العبارة تعكس احتجاجاً نفسياً فاشلاً من الكفّار، حيث يُلقون باللّائمة على آبائهم، زاعمين أنّهم نشأوا على الشّرك، دون اختيار منهم، فصيغة «إنّما» للحصر، تفيد أنّ سبب الشّرك -بحسب قولهم- هو إشراك الآباء، وهي محاولة لرفع المسؤولية عن النّفس، وردّها إلى البيئة والوراثة.

لكنّ هذه الحجّة مردودة؛ لأنّ الله تعالى قد ربّب في كلّ نفس فطرة التوحيد، وأودع فيها العقل، ومنحها القدرة على التمييز، فحتّى لو نشأ الإنسان في بيئة شرك، يبقى بإمكانه إدراك الحقّ إن طلبه، كما وقع مع إبراهيم -عليه السلام- الذي نشأ في قوم يعبدون الأصنام، ومع سلمان الفارسي الذي تنقّل في طلب الدّين الحقّ.

ولهذا كانت الآية تعبيراً عن حالة التهرّب من المسؤولية العقدية، وهو تهرّب لا يُقبل في ميزان العدل الإلهي، (فإذا احتجّوا بالعادة الطبيعية من اتّباع الآباء، كانت الحجّة عليهم الفطرة الطبيعية العقلية السابقة لهذه العادة الأبوية، كما قال ﷺ: «كلّ مولودٍ يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرّانه ويمجّسانه...» [متفق عليه وهذا اللفظ لمسلم]، فكانت الفطرة الموجبة للإسلام سابقة للتربية التي يحتجّون بها)⁽¹⁾.

(1) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل: 491/8.

2.1.3 المسألة الثانية: مقارنة مع قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ فِتْنَةٍ﴾

تأتي هذه الآية ضمن حجج أقوام الأنبياء، حيث قالوا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ فِتْنَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ فِتْنِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]. ونُعتبر عن النمط نفسه من الاستسلام للوراثة، بل وتأكيد الاتباع، لا بمجرد التقليد، بل بالاقتداء الواعي: «وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ».

هذا الرّبط بين آية الأعراف وآية الزّخرف؛ يكشف عن نمط متكرّر من الأعذار المرفوضة، إذ إنّ كلّ جيل يُحاول التنصّل من مسؤوليته بالرجوع إلى الجيل السابق، وكأنّ العقل قد عطّل، والفطرة قد مُسخت، وهو خلاف ما تُقرّره نصوص القرآن المتضافرة.

فالقرآن لا يُعفي الإنسان من مساءلته عن عقيدته، مهما كانت نشأته، بل يدعوه دائماً إلى التحرّر من ضغط التقليد، والتساؤل الحرّ عن الحقيقة، ولهذا جاء قوله: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ بِتَخْرِجِهِ لَتَأْتُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: 149].

3.1.3 المسألة الثالثة: العلاقة بين الفطرة والتقليد: صراع داخلي أو انسجام ممكن

إنّ العلاقة بين الفطرة التي تدعو إلى التوحيد، والتقليد الذي قد يقود إلى الشّرك، هي علاقة توتّر دائم في النفس الإنسانية، لا سيّما حين تكون النشأة العقديّة قائمة على الضلال، لكن هذا التوتّر لا يعني أنّ الفطرة تُهزم بالضرورة، بل في كثير من الحالات؛ تنتصر الفطرة حين تصحو، وتوقظ العقل والضمير، وتقود صاحبها إلى الإيمان.

وقد وصف القرآن هذا الانبعاث الفطري بقوله سبحانه: ﴿بِأَنفِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيمًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: 149]، فالتحوّل من التقليد إلى الإيمان ليس مستحيلاً، بل هو ممكن متى أُحييت الفطرة، وانكسرت سطوة العادة الاجتماعيّة، وُبُحث عن الحقّ بصدق، وهذا هو مناط التكليف، ومجال المحاسبة في الآخرة.

4.1.3 المسألة الرابعة: لا عذر لمن تعطلّ عند التقليد

في ضوء ما سبق، يتضح أنّ التقليد لا يعفي من المسؤولية الأخروية، لا سيّما حين يكون الإنسان قادراً على التفكير والسؤال. ولذا كان القرآن يذمّ الذين يكتفون بالاتباع دون تفكير، ويصفهم بالغفلة أو العي أو الإعراض. قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَغْيُلُونَ﴾ [الأنفال: 22].

ويظهر عدل الله تعالى في أنّه لا يعاقب أحداً قبل إقامة الحجّة عليه⁽¹⁾، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]، لكنّ من بلغه خبر التوحيد، أو أمكنه الوصول إليه بعقله وفطرته، ولم يسع إليه؛ فإنّه يكون قد قصّر، وعرض نفسه للهلاك.

وعليه، فإنّ العلاقة بين الفطرة والتقليد؛ هي مفتاح لفهم مسؤولية الإنسان العقديّة، فدعوى أنّ الإنسان وُلد في بيئةٍ مشرّكة لا ترفع عنه الحجّة، ما دام العقل والفطرة متاحين له، والقرآن يكشف هشاشة هذه الدّعوى

(1) انظر: ابن القيم، الرّوح: 379/2.

من خلال عرضها، لا لتقريرها، بل لنقضها ونسفها. وهو ما يجعل دعوى «إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا» سقوطاً لا عذراً، وتقصيراً لا تبريراً.

2.3 المسؤولية الفردية رغم البيئة الاجتماعية

تكمل الآية الكريمة: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُتَعَبِلُونَ﴾ [الأعراف: 173]، خطابها العميق للضمير الإنساني، بتسجيل حجة شائعة ومرفوضة في آنٍ واحد، هي حجة إلقاء المسؤولية على البيئة والآباء، مع التدنّج بصغر السنّ، أو ضعف الإدراك زمن النشأة الأولى.

لكنّ القرآن الكريم في هذه الآية وما شابهها؛ يعالج هذه الإشكالية بأسلوب دقيق، يقرّر فيه مسؤولية الإنسان الفردية الكاملة، عن إيمانه أو كفره، بغضّ النّظر عن خلفيته الاجتماعية أو الدّينية.

1.2.3 المسألة الأولى: دلالة قوله: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾

عبارة «ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» تشير إلى وقوع الأبناء في زمنٍ تالٍ لأبائهم، بما يحمل من معاني الوراثة والتأثير، لكنّ هذا التأخّر الزّمني لا يُلغي إمكانية التمييز أو مسؤولية التصحيح، بل يُفترض فيه توقّر فرصة النّظر والتفكّر، وتوقّر وسائل الهداية والبلاغ⁽¹⁾.

فالنّزيرة، وإن كانت في أوّل نشأتها مقلّدة، إلّا أنّها ما تلبث أن تبلغ رشدها، وتمتلك أدوات الفهم، وفي تلك اللحظة يصبح التقليد اختياراً لا قسراً، ومن ثمّ يتحوّل إلى موقفٍ ذاتيّ يستوجب الحساب، إذ الحجة لا تقوم على الجبر، بل على القدرة والإرادة والفهم.

وقد بيّن الله في مواضع أخرى أنّ الهداية متاحة لمن طلبها، وأنّه لا يعاقب أحداً لمجرّد نشأته في بيئة ضالة، بل ينظر إلى موقفه هو: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَسْلَى لِيَسْلَى لِيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء: 164]، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّى عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 43].

2.2.3 المسألة الثانية: عدالة الله في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾

هذه القاعدة القرآنية المحكمة، المتكرّرة في مواضع متعدّدة، تمثّل أحد أركان العدالة الإلهية، وهي: أن الجزء مرتبط بالعمل الشخصي لا بعمل الآخرين، حتّى وإن كانوا آباءً أو أمّهات.

فالله تعالى لا يعاقب أحداً بذنب غيره⁽²⁾، ولا يحمّل أحداً مسؤولية انحراف لم يقترفه، حتّى وإن نشأ في وسطه، ومن ثمّ فإنّ دعوى «كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» لا تنفع؛ لأنّ الله لا يؤاخذ الإنسان حتّى تقوم عليه الحجة ببلوغ، أو فطرة، أو عقل، أو دعوة.

(1) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر: ص235؛ الفراج، آثار حجج التوحيد في مؤاخذة العبيد: ص38.

(2) انظر: مرعي، رفع الشبهة والغرر عمّن يحتجّ على فعل المعاصي بالقدر: ص56.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾ [المائدة: 38]، ﴿كُلُّ إِنْمِرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ [الطور: 19]، ﴿إِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمُ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: 82]، ﴿إِن أَسْلَمُوا بِقَدِّ إِهْتَدَا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمُ الْبَلْغُ﴾ [آل عمران: 20]، ﴿إِنَّمَا عَلَيْكُمُ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: 41].

فالأيات مجتمعة تقطع بأن المسؤولية فردية لا جماعية، وأن الحساب يوم القيامة سيكون على أساس القصد والعمل، لا على أساس الوراثة والنشأة.

3.2.3 المسألة الثالثة: لماذا لا تقبل الحجة البيئية يوم القيامة؟

يُستفاد من قوله تعالى: ﴿أَفْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 173] أَنَّ المنكرين يُلْحُونَ فِي أَنَّ الهلاك لا يصح أن يقع عليهم، ما داموا مقلدين لغيرهم، وأن آباءهم هم المبطلون الحقيقيون.

لكن القرآن يردّ ضمناً على هذه الحجّة بأنّ الهلاك لا يقع ظلماً، وإنّما يقع على من ارتضى الباطل وسلك طريقه، سواء ابتدأه أو تبعه، فليس من قلّد الباطل بأقلّ جزءاً ممّن ابتدأه، بل قد يكون أشدّ، إن أصرّ عليه مع قيام الحجّة عليه.

ولذا ذمّ الله الكافرين بقوله: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ فِتْنَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ هُدًى مِّمَّنْ هُمْ يُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 21]، فالأقضاء دون نظر، والتقليد دون تعقل، هو مناط الإثم، لا مجرد النشأة الاجتماعية.

ويتبيّن من هذا التحليل؛ أَنَّ العدالة الإلهية قائمة على المسؤولية الفردية، وأنّ الإنسان لا يُعذّر في تقليده للباطل، إذا توقّرت له سبل المعرفة والهداية، فالقول «كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» لا يُسقط التكليف، ولا يرفع الجزاء، لأنّ الله خلق الإنسان مفطوراً على التوحيد، مزوداً بالعقل، موصلاً إليه رُسله، وميسراً له سُبُل البيان.

ومن هنا تظهر عظمة الميثاق الذي تحدّثت عنه آية الأعراف، حيث أشهد الإنسان على ربه في أصل فطرته، فلا عُذر له أن يدّعي الجهل، أو يتذرّع بالتقليد.

3.3 ختم الحجّة: الفطرة، والرسول، والجزاء

تمثّل آيات [الأعراف: 172-173] مشهداً قرآنياً جامعاً لأسس المسؤولية الإنسانية، منطلقاً من الفطرة، ماراً بعالم الشّهادة، منتهاً إلى الموقف الأخروي، وفي هذا السّياق تتجلّى حكمة ختم الحجّة على الإنسان من جهتين متكاملتين: الفطرة التي فطر عليها، والرسول الذين جاءوا ببيانها وتفصيلها، وبهذا التكامل تنتفي كلّ الأعذار، وتقوم على الإنسان الحجّة عدلاً ورحمةً.

1.3.3 المسألة الأولى: التكامل بين الفطرة والرسول

قال تعالى: ﴿لَيْسَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 164]، فهذه الآية تبرز الغاية من إرسال الرّسل، وهي إقامة الحجّة النهائيّة، بحيث لا يبقى لمعتذر طريق، ولا لمنكر مفرّ⁽¹⁾، ذلك أنّ الفطرة وحدها قد تُطمس أو تُغلب عليها الشّهوات والبيئة، فجاءت الرّسالات لتوقظ الفطرة، وتجلّي طريق الحقّ، وتحسم التردّد بين التقليد والاتباع الواعي.

(1) انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن: 693/7.

إنّ الميثاق المأخوذ من بني آدم يمثل أوّل رابط بين الإنسان وربّه، بينما الرّسالات هي تذكيرٌ بهذا الرّابط، وتفصيلٌ لمعناه، وإنذارٌ بعواقب التفريط فيه، وهذا المعنى بيّنه الله بقوله: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمِنِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 7]، وقوله: ﴿بَذِّرْ لِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: 21].

فلا يحقّ لأحد أن يقول: لم أعلم؛ لأنّ الأصل الفطريّ قائم، والتذكير الرّسالي متاح، إمّا مباشرة، أو عبر آثار الدّعوة، أو بعقلٍ يطلب الله به الحقّ.

2.3.3 المسألة الثانية: تأمل قولهم: ﴿أَبْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾

هذا السؤال الاعتراضي يحمل في طيّاته محاولةً لرفع المسؤولية بزعم الوقوع في التقليد، وكأنّ من جاء بعد المبطلين لا ذنب له إذا سار على طريقتهم، (أفتؤاخذنا يا ربّ، فتهلكنا بما فعل المبطلون، من آبائنا، بتأسيس الشّرك الذي جرّونا إليه)⁽¹⁾.

ويمكننا القول: إنّ لا حجة لهم في ذلك، فهو اعتراض مردود، لسببين:

- لأنّ الاتّباع فعل اختياري: بعد البلوغ العقلي، وهو قابلٌ للتغيير بمجرد التفكير أو البحث، فمن لم يسلك طريق التحقيق والإيمان، رغم ما أودع الله فيه من عقل وفطرة، فقد استحقّ الجزاء.

- لأنّ الله لا يهلك أحداً إلّا بعد إقامة الحجّة: إمّا بفطرته، أو برسله، أو بآثار الرّسالة المنتشرة في الآفاق، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

فتبيّن أنّ قولهم: ﴿أَبْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 173] لا يُقبل، لأنّه محاولة للتكاء على أخطاء من سبق، من غير اجتهاد في تصحيحها.

3.3.3 المسألة الثالثة: لا يعفي التقليد من المسؤولية

إنّ التقليد في ذاته ليس مذموماً مطلقاً، بل قد يكون محموداً إذا كان في المعروف، وبنية مؤقتة حتّى يبلغ الإنسان سعة النّظر، لكنّ التقليد في الأصول العقدية من غير تمحيص مذموم شرعاً، لأنّه يعطلّ دور العقل، ويجعل الحقّ تابعاً للنّاس لا للدليل، ولذلك ذمّ القرآن الكافرين في قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ هَٰذَا وَإِنَّا عَلَىٰ ءَابَائِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْمَلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 169].

فمن قلّد ضلالاً دون سعي في تصحيح، فهو مسؤول، ومن سمع الحقّ ثمّ أعرض تقليداً، فقد أقام على نفسه الحجّة بنفسه.

وفي ضوء ما سبق، يتّضح أنّ الله قد أحكم سبل إقامة الحجّة على خلقه، فأشهدهم على أنفسهم بالفطرة، وذكّرهم بلسان الرّسل، وأعطاهم العقل والاختيار، فلا يُعذر عند الله من قلّد ضلالاً، وهو قادرٌ على التفكير، ولا من نسب انحرافه إلى بيئته دون محاولة للتغيير، فالآية الكريمة تُظهر تمام العدل الإلهي، وتقطع سبيل الاعتذار بالتقليد، وتبيّن أنّ الهداية مفتوحة لمن شاء، وأنّ الجزاء عدل، ورحمة لمن سعى.

(1) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، مجموعة من علماء الأزهري: ص 235.

4. الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، أما بعد:

فقد تناول هذا البحث تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَاذَّ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَرِيلِينَ ۖ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 172-173]؛ تفسيرًا تحليليًا في ضوء القرآن الكريم نفسه، من خلال المنهج البياني المعروف بـ «تفسير القرآن بالقرآن»، جامعًا بين الدلالة اللفظية، والمعاني العقدية، والرؤية التكاملية.

وقد انتهى البحث إلى جملة من النتائج أبرزها:

1. أنَّ الميثاق الإلهي المذكور في الآية هو ميثاق فطري، غُرِز في طبيعة الإنسان منذ وجوده، وأنَّه يعبر عن أصل التوحيد المغروس في القلب البشري، لا عن مشهد حسي غيبي مجرد.
2. أنَّ الإشهاد الإلهي على النَّفس بربوبية الله -عزَّ وجلَّ- هو تذكيرٌ بمصدر المعرفة الفطرية، وأنَّ جواب «بلى» الذي نطقت به البشرية يعبر عن توافق الفطرة مع مقتضيات الإيمان، لا عن مجرد مشهد تاريخي منقطع.
3. أنَّ الآية تقطع حجة الغفلة والتقليد، وتغلق أبواب الاعتذار يوم القيامة بعدم العلم أو الاتِّباع الأعمى، بفضل الجمع بين الميثاق الفطري، والرَّسالات الإلهية، والاختيار العقلي.
4. أنَّ التقليد في مسائل الاعتقاد لا يُعذر به عند الله، وأنَّ قوله سبحانه على لسان المقلِّدين: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يردُّ بالقول الإلهي المحكم: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فكل فرد مسؤولٌ عن إيمانه، ولو كان ناشئًا في بيئة ضلال.
5. أنَّ العدل الإلهي يتجلى في تعدّد وسائل إقامة الحجّة: من الفطرة، إلى العقل، إلى الرّسل، فلا مجال للغفلة الأصلية، ولا مبرر للاعتراض على المصير الأخروي لمن فرط في البحث عن الحق.

توصيات:

يوصي البحث بما يلي:

1. ضرورة تعميق الوعي بالفطرة القرآنية في مناهج التعليم والدعوة، وربطها بالواقع الأخلاقي والاعتقادي للإنسان.
 2. إعادة الاعتبار لمنهج تفسير القرآن بالقرآن، بوصفه أقرب المناهج إلى فهم المعنى الحق المتكامل، وأكثرها انسجامًا مع روح الوحي.
 3. التنبيه إلى خطورة الوراثة العقيدية العمياء، وتأكيد المسؤولية الفردية في العقيدة، بعيدًا عن التقليد الأعمى، والانقياد للتاريخ، أو المجتمع، دون وعي.
- وبذلك يُختتم هذا الجهد المتواضع، سائلًا الله تعالى أن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرزقنا فهم كتابه، والعمل به، والدعوة إليه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.
- وصلّى الله على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه، وسلّم.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم (برواية ورش عن نافع).
2. أحمد، بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001م.
3. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، القضاء والقدر، تحقيق: محمد آل عامر، ط1. الرياض: مكتبة العبيكان، 2000م.
4. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، الأسماء والصفات، تحقيق: عبد الله الحاشدي، ط1. جدة: مكتبة السوادي، 1993م.
5. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد، تفسير القرآن العظيم. تحقيق: أسعد محمد الطيّب، ط3، الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز، 1419هـ.
6. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط3. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ.
7. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، العذب النّير من مجالس الشنقيطي في التفسير، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، ط5. الرياض: دار عطاءات العلم، بيروت: دار ابن حزم، 2019م.
8. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مكة المكرمة: دار التربية والتراث، د.ت.
9. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م.
10. الفراج، مدحت حسن، آثار حجج التوحيد في مؤاخذة العبيد، ط1. كراتشي: دار الكتاب والسنة؛ الرياض: مكتبة دار الحميضي، 1995م.
11. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط2. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1964م.
12. ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الروح: في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة. بيروت: دار الكتب العلمية.
13. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تعليق: محمد حسين شمس الدين، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م.
14. لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، د.ط. مصر: مؤسسة الأهرام، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
15. مالك، بن أنس، الموطأ، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1985م.

16. مرعي، بن يوسف الكرمي، رفع الشبهة والغرر عمّن يحتجّ على فعل المعاصي بالقدر، تحقيق: أسعد محمد المغربي، ط1. مكة المكرمة: حراء، 1410هـ.
17. مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، موسوعة التفسير المأثور. بيروت: دار ابن حزم، 2017م.
18. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط3. بيروت: دار صادر، 1414هـ.
19. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط1. بيروت: دار الكلم الطيب، 1998م.